الشيخ ندا
أبو أحمد

الموسوعة الندية في الآداب الإسلامية

(١)

أهمية الآداب الإسلامية

الشيخ/ندا أبو أحمد

أهمية الآداب الإسلامية

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

أهمية الآداب الإسلامية

تعريف الأدب.

اهتمام السلف الصالح بالأدب.

من آثار السلف في الحث على التأدب.

وكان السلف يرجحون الأدب على العلم.

وكان طلبة العلم قديمًا يفتشون عمن يأخذون عنه العلم، وينقبون عن سمته وهديه قبل الجلوس بين يديه، والتلقي منه.

حرص السلف على ملازمة الشيوخ وَالمؤَدِّبِينَ.

أدب الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

أدب الصحابة رضي الله عنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم.

مِن أدبِ العلماءِ مع النبي صلى الله عليه وسلم.

أهمية الآداب الإسلامية

تعريف الأدب:

الأدب لغة:

قال ابن منظور-رحمه الله-: " سمي أدبًا؛ لأنه يَأْدِبُ الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح ".

الأدب اصطلاحًا:

قال المناوي-رحمه الله-: " الأدبُ رياضة النفوس، ومحاسنُ الأخلاق، ويقع على كل رياضة محمودة يتخرَّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل ".

وقيل: هو عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ، وهو فيما يتعلق بالسلوك: حسن الأحوال في القيام والقعود وحسن الأخلاق والصفات الحميدة...".

فالأدب: اجتماع خصال الخير في الإنسان، ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.
وعلى هذا فالأدب هو: استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً، أي: الأخذ بمكارم الأخلاق أو الوقوف مع المستحسنات.

قال ابن القيم-رحمه الله-: " وحقيقة الأدب؛ استعمال الخلق الجميل. ولهذا كان الأدب استخراجًا لما في الطبيعة من الكمال من القول إلى الفعل ". **(تهذيب مدارج السالكين ص:٤٤٨)**

وقيل: هو الكلام الجميل الذي يترك في نفس سامعه أو قارئه أثرًا قويًا يحمل على استعادته والاستزادة منه والميل إلى محاكاته ". **(المصدر السابق)**

وقيل: هو الأخذ بمكارم الأخلاق مثل: تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك ". **(الكليات للكفوي ص:٦٥)**

وقال شيخ الإسلام الهروي-رحمه الله-: " الأدب حفظ الحد بين الغلوِّ والجفاءِ، بمعرفة ضرر العدوان ".

قال ابن القيم-رحمه الله- معلقًا على كلام الهروي: " هذا من أحسن الحدود؛ فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء هو قلة الأدب، والأدب: الوقوف في الوسط بين الطرفين[1]، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدودًا له؛ فكلاهما عدوان، والله لا يحب المعتدين، والعدوان هو سوء الأدب ". **(مدارج السالكين:٢/ ٤٠٨)**

١- وكان بعض السلف يقول:" دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه ".

أهمية الأدب وشدة الحاجة إليه

أن الحديث عن الآداب الإسلامية من الأهمية بمكان خصوصًا في هذا الزمان حيث تأثر كثيرٌ من المسلمين بالحضارة الغربية والثقافة الأوروبية وابتعدوا عن هدي خير البرية، فراحوا يقلدون من لا خلاق لهم في جميع أمور حياتهم: في طعامهم، وشرابهم، وملابسهم، حتى في طريقة كلامهم، وقصهم لشعرهم، وصدق فيهم قول النبي ﷺ:" **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قالَ: فَمَنْ؟**". (رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه)

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ بما يكونُ عليه حالُ أُمَّتِه في فترةٍ مِنَ الفتراتِ التي تأتي بعْدَ زَمانِه ﷺ، وهي مُتابَعةُ أهلِ الأهواءِ والبِدعِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى الَّذين بدَّلوا دِينَهم، فقال ﷺ:" **لِتتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قبلَكم**"، والسَّننُ: هي الطَّريقةُ والأفعالُ، والمعنى: أنَّكم تَتَّبعونَ طَريقةَ النَّصارى واليهودِ في أفعالِهم وحَياتِهم مُتابَعةً دَقيقةً شَديدةً، تَاركينَ سُنَّتَه ﷺ، وصَوَّرَ النَّبيُّ ﷺ شِدَّةَ هذا الاتِّباعِ، فقال:" **شِبرًا بِشبرٍ، وذِراعًا بذِراعٍ**"، وهذا كِنايةٌ عَن شِدَّةِ الموافَقةِ لهم، واتِّباعِهم في عاداتِهم وتَقاليدِهم، حتَّى لو دخَلَ اليهودُ والنَّصارى جُحرَ ضَبٍّ لَدَخَلَه المسلمونَ وَراءَهم، والضَّبُّ: حَيوانٌ جُحرُه شَديدُ الظُّلْمةِ نَتِنُ الرِّيحِ، وهو مِن الزَّواحفِ يَكثُرُ في الصَّحاري العَرَبيَّةِ، ووَجْهُ التَّخصيصِ بجُحرِ الضَّبِّ: شِدَّةُ ضِيقِه ورَداءَتُه، ومع ذلك فإنَّهم- لاقتِفائهم آثارَهم واتِّباعِهم طَرائقَهم- لو دَخَلوا في مِثلِ هذا الضِّيقِ الرَّديءِ لَوافَقوهم!

وقدْ وقَعَ ما أخبَرَ به النَّبيُّ ﷺ، وانتشَرَ ذلك في الأزمنةِ المتأخِّرةِ؛ مِن اتِّباعِ كَثيرٍ مِن المُسلِمينَ لأعداءِ اللهِ تعالَى في عاداتِهم وتَقاليدِهم وسُلوكيَّاتِهم، فقلَّدوهم في مَلابِسِهم وشَعائرِهم، وقَلَّدوهم في أعيادِهم، وفيما هُمْ عليه مِن أخلاقٍ ذَميمةٍ، وعاداتٍ فاسدةٍ تُخالِفُ شَريعةَ الإسلامِ المُطهَّرةَ ". (الدرر السنية)

فما أحوجنا في هذا الزمان أن نقتدي بالنبي العدنان ﷺ ونقتفي أثره وأن نهتدي بهديه ونستن بسنته، ونتعلم كيف كان يتوضأ، كيف كان يصلي، كيف كان يصوم، كيف كان يحج، كيف كان يبيع ويشتري، كيف كان يقضي حاجته، كيف كان يأكل، كيف كان يشرب، كيف كان ينام، حتى هديه في التثاؤب العطاس، نريد أن نتأدب بأدبه ﷺ في كل صغيرة وكبيرة حتى نسعد في الدنيا والآخرة.

وقد كان السلف الصالح أشد الناس حرصًا على تعلم وتعليم الآداب الإسلامية لأنهم يعلمون يقينًا أن خير الهدي هدي النبي ﷺ، وأنه لا نجاح ولا فلاح في الدنيا والآخرة إلا لمن اهتدى بهديه، واستن بسنته. واقتفى أثره.

يقول القاسمي-رحمه الله-[1]: " أدب النفس ممدوح بكل لسان، ومتزيَّن به في كل مكان، وباق ذكرُه مدى الأزمان، وكل من أعار الوجودَ نظرة البصير؛ علم أن حاجة المرء إلى تأديب نفسه من أهم الحاجات، وإذا كان الرجال بالأعمال، فإن الأعمال هي آثار الآداب والأخلاق والصفات، وبذلك يتفاضل الناس، وليس بالعلوم والإجازات والشهادات فحسب، فان العلم آلة تديرها الأخلاق، وتسيرها الآداب.

وأدب الظاهر عنوان أدب الباطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والآداب رشح الأرواح السامية، والنفوس المهذبة، والمعارف الراقية، فالإنسان مركب من جسدٍ مُدْرَك بالبصر، ومن روح ونفس مدركة بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة، إما قبيحة وإما جميلة، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (سورة ص:٧١،٧٢) فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، وحسبك هذا دليلًا على شرف الأدب وفضله.

(جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب" للقاسمي ص:٣)

ما وهب الله لامرئ هبـةً أفضْلَ من عقله ومن أدبه

هما حياة الفتى فإن فُقِدا فإن فقدَ الحيـاة أحسنُ به

والأدب يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجليلة، ويعز بلا عشيرة، **وقد قيل:**" من قعد به حَسَبه، نهض به أدبه ". **(لباب الآداب ص:٢٢٨)**.

قال ابن قيم الجوزية-رحمه الله-: " أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلةُ أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانهما بمثل قلة الأدب، فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نجَّى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة[2]، والإخلال به مع الأم- تأويلًا وإقبالًا على الصلاة- كيف امتُحن صاحبه بهدم صومعته، وضَرْب الناس له، ورميه بالفاحشة[3]". وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومُدْبِرٍ كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان. وانظر أدب الصدِّيق ﷺ مع النبي ﷺ في الصلاة أن يتقدم بين يديه، فقال:" **ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ** [4]". كيف أورثه مقامه والإمامة بعده، فكان ذلك التأخر إلى خلفه -وقد أومأ إليه: أن اثبت مكانك- بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قُدَّام تنقطع فيها أعناق المطيِّ، والله أعلم ".

(مدارج السالكين:٢/ ٣٩١)

١- من كتاب" حرمة أهل العلم" للشيخ محمد أحمد إسماعيل المقدم- حفظه الله- ص:١٣١- ١٦٨. بتصرف.
٢- انظر الحديث في البخاري (٣/ ١١٩)، ومسلم (١٧/ ٥٥ - ٥٧) من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-.
٣- انظر الحديث في البخاري (٤/ ٢٠١)، ومسلم (١٦/ ١٠٦ - ١٠٨)، وأحمد (٢/ ٣٠٧، ٣٠٨)
٤- انظر الحديث في " صحيح مسلم " (١/ ٣١٦، ٣١٧).

- والأدب منه ما هو وهبيٌّ يجْبَلُ عليه الإنسان، ومنه ما هو كسبي يمكن اكتسابه بالمجاهدة والترويض[1]، قال ﷺ لأشَجّ عبد القيس رضي الله عنه:" إن فيك خَلَّتين يحبهما الله: الحِلْمُ والأناة"، فقال:" يا رسول الله! أنا أتخلَّقُ بهما، أم الله جبلني عليهما؟"، قال:" بل الله جبلك عليهما"، قال:" الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله ". (رواه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني في" صحيح أبي داود رقم:٤٣٥٤).

وقال ﷺ:" إنما العلم بالتعلم، والحِلْم بالتحلم، ومن يتحر الخير يُعْطَه، ومن يتوق الشر يُوَقه ".
(رواه الخطيب وحسنه الألباني في" الصحيحة" رقم:٣٤٢)

ولو كانت الأخلاق والآداب صفات لازمةً في الإنسان، بحيث يستحيل تغييرها وتبديلها[2] كسائر الصفات الجسدية الوراثية لما أمر الشرع بالتحلي بالآداب الجميلة، والتخلي عن القبيحة[3]، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس:٩، ١٠)، وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦)، قال علي رضي الله عنه:" علموا أنفسكم وأهليكم الخير، وأدبوهم ".
(الدر المنثور:٦/ ٢٤٤)

وقال مجاهد–رحمه الله– في هذه الآية: " أوصوا أنفسكم وأهليكم بتقوى الله وأدّبوهم ". (الفتح:٥٢٧/٨)

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: " أيما رجل كانت عنده وليدة، فعلَّمها، فأحسن تعليمها، وأدَّبها، فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران"، فإذا كان هذا في الأمَة فكيف بالأهل والأبناء؟

وعن عبد الله بن عمر–رضي الله عنهما– قال: " أدِّب ابنك، فإنك مسئول عنه: ماذا أدَّبته، وماذا علَّمته؟، وهو مسئول عن برِّك وطواعيته لك ". (تحفة المودود ص:٢٢٥)

وقال إلكيا الهراسي–رحمه الله–: " فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير، وما لا يُستغنى عنه من الأدب ". (الجامع لأحكام القرآن:١٨/ ١٩٦).

وقال سعيد بن منصور–رحمه الله–: حدثنا حزم قال: سمعت الحسن، وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فقال:" يا أبا سعيد! ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا، أم في الآخرة؟، قال:" لا، بل والله في الدنيا"، قال:" وما هي؟"، قال:" والله أن يُرِيَ الله العبدَ من زوجته، من أخيه، من حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدًا، أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مطيعًا لله عز وجل ". (تحفة المودود ص:٢٢٦).

١- لكن الناس يتفاوتون في مقدار أهليتهم واستعدادهم لاكتساب الآداب أو تعديلها، فمن جُبل على أدب معين يسهل عليه ترسيخه في نفسه؛ لأن فطرته تعينه عليه.
٢- وكيف ينكر تغيير الأخلاق وترويض النفوس في حق بني آدم مع أن تغيير خُلُق البهيمة ممكن؟! إذ ينقل الوحش بالترويض من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وانظر:" جوامع الآداب" ص:٤).
٣- لأنه " لا تكليف إلا بمقدور " و " لا تكليف بمستحيل "، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

إن قوى النفس الإنسانية مفتقرة دائمًا إلى تعهدها بالتربية والتثقف والتفقد والتقويم، كالأرض لا تُخرج ما في أرحامها إلا بالفلاحة والرعاية والتفقد، الأمر الذي يحتاج آلاتٍ وأسبابًا خاصة.

ولاشك أن" الأسرة " هي أخطر مؤسسة تربوية، وأن" الوالد " يتحمل المسئولية الكاملة عن التوجيه التربوي لأهله وولده، فإن فسد القَوَّامُ؛ عمَّ الفسادُ جميعَ الأقوام، وإن أخلَّ بواجباته التربوية صار هو الحاضر الغائب، وتساوى أبناؤه مع " اليتامى"، **قال الشاعر:**

ليس اليتيم الذي قد مات والداه   إن اليتيم يتيمُ العلمِ والأدبِ

وقال أخر:

ليس اليتيمُ من انتهى أبواه من   هَمِّ الحياة، وخلَّفاه ذليلًا
إن اليتيـمَ لمـن تَـلْقَى لـه   أمًا تَخلَّتْ أوَ أبًا مشغولًا

اهتمام السلف الصالح بالأدب

أصغى سلفنا الصالحون إلى التوجيهات الربانية والأحاديث النبوية التي ترفع شأن الأدب، وتحث عليه، وتحذر من سوء الأدب إلى حد تبرؤ النبي ﷺ من أهله، **حيث قال**ﷺ: "**ليس منا من لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**[1]"، فانفعلوا بها، وأعطوها ما تستحق من الأولوية والامتثال، فرأيناهم يُدخلون كتاب الأدب في مصنفاتهم " الجوامع"، ومنهم من أفرده بالتصنيف كما فعل البخاري في" الأدب المفرد"، والخطيب البغدادي في" الجامع"، وابن جماعة في" التذكرة "، وكما صنف ابن مفلح كتابه:" الآداب الشرعية، والمنح المرعية "، والسفاريني في" غذاء الألباب بشرح منظومة الآداب"، وغيرهم.

وكان تأديب الأولاد وظيفة تخصصية يباشرها المتأهلون لها، حتى كان يلقب الإمام ابن أبي الدنيا بـ " مؤدب أولاد الخلفاء"، وكانوا يحرصون أشد الحرص على متانة الروابط بينهم وبين من يؤدبون أولادهم، وكانوا يحزنون إذا غابوا عن أولادهم خشية أن لا يؤدَّبوا على ما يريدون ويشتهون.

فقد ذكر الراغب الأصفهاني أن المنصور بعث إلى من في الحبس من بني أمية، يقول لهم:" ما أشد ما مرَّ بكم في هذا الحبس؟"، فقالوا:" ما فقدنا من تربية أولادنا ". **(تربية الأولاد في الإسلام:١/ ١٥٢)**

١- رواه الإمام أحمد (٥/ ٣٢٣)، والحاكم (١/ ١٢٢) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وحسنه الألباني في (صحيح الجامع:٥٣١٩).

من آثار السلف في الحث على التأدب

قال أيوب بن سويد: سمعت الثوري-رحمه الله- يقول: " كان يقال: حسن الأدب يطفئ غضب الرب عز وجل ". (الحلية :٧/ ٧٩).

وقال ذو النون-رحمه الله- :" إذا خرج المريد عن استعمال الأدب، فإنه يرجع من حيث جاء ".

(مدارج السالكين:٢/ ٤٠٦)

وقال البوشنجي-رحمه الله-: " من أراد العلم والفقه بغير أدب، فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله ".

(نزهة الفضلاء :٢/ ١٠٠٦)

وقال عبد الله بن المبارك-رحمه الله-: " من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة ". (مدارج السالكين :٢/ ٣٨١).

وقال حبيب الجلاب: سألت ابن المبارك -رحمه الله-: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب. قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره. قلت: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل ". (سير أعلام النبلاء:٨/ ٩٣)

وقال ابن المبارك-رحمه الله-:

جربت نفسي فما وجدت لها من بعد تقوى الإله كالأدب

(المصدر السابق:٨/٤١٦)

وقال ابن المبارك-رحمه الله-: " تعلمت الأدب ثلاثين سنة، وتعلمت العلم، عشرين سنة، وكانوا يتعلمون الأدب ثم العلم ".

وقال أبو عاصم: سمعتُ سفيان الثوري-رحمه الله- يقول:" كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث، تأدب وتعبد قبل ذلك بعشرين سنة ". (الحلية:٦/٢٦١)

وقال رُوَيْم بن أحمد البغدادي لابنه: " يا بُني اجعل عملك مِلْحًا، وأدبَك دقيقًا ". (الفروق للقرافي:٣/ ٩٦).

أي: استكثر من الأدب حتى تكون نسبتُه في سلوكك من حيث الكثرةِ كنسبة الدقيق إلى الملح الذي يوضع فيه، فمعنى عبارة رويم: أن الإكثار من الأدب في العمل القليل، خير من العمل الكثير الخاوي عن الأدب.

وقال الإمام الخطيب البغدادي-رحمه الله-: " والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدبًا، وأشد الخلق تواضعًا، وأعظمهم نزاهة وتدينا، وأقلهم طيشًا وغضبًا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدثين، ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجملها وأحسنها، ويصدفوا عن أرذلها وأدونها". اهـ

(الجامع لآداب الراوي والسامع:١/ ٧٨)

وقال أيضًا-رحمه الله-: " ينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق القوم باستعمال آثار رسول الله ﷺ ما أمكنه، وتوظيف السنن على نفسه، **فإن الله تعالى يقول:** ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورةالأحزاب: ٢١) (المصدر السابق :١/ ١٤٢).

وكان سفيان بن عيينة-رحمه الله- يقول: " إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، فعليه تُعرض الأشياء، على خُلُقه وسيرته وهَدْيه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل ". (المصدر السابق :١/ ٧٩).

وقال ابن شهاب-رحمه الله-: " إن هذا العلم أدبُ الله الذي أدَّب به نبيه ﷺ، وأدب النبي ﷺ أمته، أمانةُ الله إلى رسوله، ليؤديه على ما أدِّي إليه، فمن سمع علمًا؛ فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل ". (المصدر السابق :١/ ٧٩).

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا-رحمه الله- يقول:" إن حقًّا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون مُتَّبِعًا لأثَرِ مَنْ مضى قبله ". (المصدر السابق :١/ ١٥٦).

وقال ثابت بن محمد: سمعت الثوري-رحمه الله- يقول:" إن استطعت ألا تَحُكَّ رأسك إلا بأثر؛ فافعل".
(المصدر السابق:١/ ١٤٢)

وقال أبو زكريا العنبري-رحمه الله- :" علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم، كروح بلا جسم ".
(من أدب الإملاء والاستملاء، للإمام السمعاني، وكتاب الجامع – للخطيب البغدادي:١/١٧١)

وقال يوسف بن الحسين-رحمه الله- :" بالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصحُّ العمل، وبالعمل تُنال الحكمة، وبالحكمة يُقام الزهد، وبالزهد تُترك الدنيا، وبترك الدنيا يُرغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى ".

وقال الماوردي-رحمه الله-: " يُكْتَسَبُ من الأدب الصالح العقل النافذ، ومن العقل النافذ؛ حسن العادة؛ ومن حسن العادة الطباع المحمودة، ومن الطباع المحمودة؛ العمل الصالح، ومن العمل الصالح؛ رضا الرب، ومن رضا الرب الملك الدائم. ويكتسب من الأدب السوء: فساد العقل، ومن فساد العقل؛ سوء العادة، ومن العادة السيئة؛ رداءة الطبع، ومن الطباع الرديئة سوء العمل، ومن العمل السيئ؛ سوء القالة وغضب الله، ومن غضب الله وسخطه؛ الذل الدائم ". (نصيحة الملوك ص:١٧٣)

وكان السلف يرجحون الأدب على العلم:

فالأدب لفظ جامع للفضائل والأخلاق الكريمة، التي تؤدي إلى المحامد، لذا كان السلف يقدمونه على العلم.

قال أبو زيد الأنصاري-رحمه الله-: " الأدب يقع على كل رياضة محمودة، يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل ".

وقال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-: " الأدب: استعمال ما يُحمد قولًا وفعلًا، وعبر بعضهم بأنه الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل: الوقوف مع المستَحسَنَات، وقيل: بل هو تعظيمُ من فوقك، والرفق بمن دونك، وقيل: إنه مأخوذ من" المأدبة "، وهي الدعوة إلى الطعام، سُمِّي بذلك؛ لأنه يُدعَى إليه ".

(فتح الباري:١٠/ ٤٠٠)

هذه المعاني كلها تدخل في مسمى الأدب، وهي التي كان يطلق عليها في لسان السلف الصالح اسم: " **الهَدْي**"، وهَدْيُ الرجل: سيرته العامة والخاصة، وحالهُ، وأخلاقه.

قال ابن سيرين-رحمه الله-: كانوا يتعلمون الهَدْي كما يتعلمون العلم ". **(تذكرة السامع والمتكلم ص:٢)**

ولأن" خير الهدي هدي محمد ﷺ"، فقد كان السلف يرمقون من كان أولى الناس وأقومهم بهديه ﷺ، فحينئذ يرتضونه أسوة وقدوة، وينتفعون بلحظه ولفظه، ويصدرون عن خُلقه وسلوكه، ويدونون هذا الهدي لتتناقله الأجيال وتنتفع به[1].

- ***فهذا الإمام عبد الله بن المبارك-رحمه الله- يقول:*** " إذا وُصف لي رجل له علم الأولين والآخرين، لا أتأسف على فوت لقائه، وإذا سمعت رجلًا له أدب النفس أتمنى لقاءه، وأتاسف على فوته ".

- ***وقيل للشافعي-رحمه الله-*** :" كيف شهوتك للأدب؟" فقال:" أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه، فتودّ أعضائي أن لها أسماعًا فتنعم به ". قيل له:" وكيف طلبك له؟" قال:" طلب المرأة المضِلَّة ولدَها وليس لها غيره ". **(تذكرة السامع والمتكلم ص:٣)**

- ***وقال مخلد بن الحسين لابن المبارك:*** " نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث ".

(المصدر السابق)

- ***وقال الحسن -رحمه الله-:*** " إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنتين ".

(لباب الآداب ص:٢٢٧)

- ***وقال سفيان الثوري-رحمه الله-:*** " كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدب، وتعبد قبل ذلك بعشرين سنة ". **(حلية الأولياء:٦/ ٣٦١)**

١- وما يزال بعض الناس إلى عهد قريب -في بلاد الهند وما والاها- يراقبون ما يصدر عمن وصل في نظرهم إلى هذا المقام، فيكتبون عنه ما يقول وما يفعل، ويجمعون ذلك في كتاب يسمونه " الملفوظات " أو" الفيوضات " (انظر صفحات في أدب الرأي للشيخ محمد عوامة ص:٦١).

- ***وقال خالد بن نزار:*** سمعت مالك بن أنس-رحمه الله- يقول لفتى من قريش:" يا ابن أخي، تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم ". **(المصدر السابق)**

- ***وقال الإمام مالك-رحمه الله-:*** كانت أمي تُعَمِّمُني، وتقول لي:" اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه ". **(ترتيب المدارك :١/ ١١٩)**

وقال أيضًا-رحمه الله-: أن رجلًا قال لرجل من أهل السنة سأله عن طلب العلم، فقال له:" إن طلب العلم يحسن، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح حتى تمسي، ومن حين تمسي حتى تصبح، فالزمه، ولا تؤثرن عليه شيئًا ". **(الحلية :٦/٣١٩)**.

- ***وقال بعض السلف لابنه:*** " يا بني! لأن تتعلم بابًا من الأدب، أحبُّ إليَّ من أن تتعلم سبعين بابًا من أبواب العلم ". **(تذكرة السامع والمتكلم ص:٣)**

- ***وقال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد -رحمه الله-: قال لي أبي:*** " يا بني اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إليَّ لك من كثير من الحديث ".

(تذكرة السامع والمتكلم ص:٢) (الجامع للخطيب البغدادي:١/٨٠)

فذكِّ عقلك أخي الحبيب بالأدب، كما تذكي النار بالحطب. واعلم أن الأدب أقرب الطرق إلى الله تعالى، فلله طرائق بعدَدِ الأنفاس، وأقرب الطرق إلى الله: طريق الذل والانكسار، وهما من خصال الأدب.

وكان طلبة العلم قديماً يفتشون عمن يأخذون عنه العلم، وينقبون عن سمته وهديه قبل الجلوس بين يديه، والتلقي منه.

- ***قال إبراهيم النخعي-رحمه الله-:*** " كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه ".

وقال أيضًا-رحمه الله-: " كنا إذا أردنا أن نأخذ عن شيخ، سألنا عن مطعمه ومشربه ومُدخله ومُخرجه، فإن كان على استواء أخذنا عنه، وإلا لم نأته " **(الكامل في ضعفاء الرجال:١/ ١٥٤)**.

- ***وقال الإمام مالك-رحمه الله-:*** " رأيت أيوب السختياني بمكة حَجتيْن، فما كتبت عنه، ورأيته في الثالثة قاعدًا في فناء زمزم، فكان إذا ذكرَ النبي ﷺ عنده يبكي حتى أرحمه، فلما رأيت ذلك كتبت عنه ".

(إسعاف المبطأ برجال الموطأ ص:٣)

- وكان أصحاب عبد الله بن مسعود ﷺ يرحلون إليه فينظرون إلى سمته، وهديه، ودَلِّه، فيتشبهون به ".

(غريب الحديث للقاسم بن سلام:٣/ ٣٨٣).

- ***وجاء في ترجمة علي بن المديني-رحمه الله-:***" أن الناس كانوا يكتبون قيامه، وقعوده، ولباسه، وكل شيء يقوله أو يفعله ". **(تاريخ بغداد:١١/ ٤٦٢)**.

- ***وروى الإمام مالك-رحمه الله-عن التابعي محمد بن سيرين قوله واصفًا حال كبار التابعين***[١]:" كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم "، قال مالك:" وبعث ابن سيرين رجلًا ينظر كيف هَدْيُ القاسم بن محمد[٢] وحاله ". **(الجامع للخطيب:١/ ٧٩)**.

- ***وقال ابن وهب-رحمه الله-:***" حدثني مالك أن ابن سيرين كان قد ثقل، وتخلَّف عن الحج، فكان يأمر من يحج أن ينظر إلى هدي القاسم، ولبوسه، وناحيته[٣]، فيبلغونه ذلك، فيقتدي بالقاسم ".

(سير أعلام النبلاء:٥/ ٥٧).

- ***وكان أبو بكر بن إسحاق إذا ذكر عقل أبي علي الثقفي يقول:***" ذاك عقل مأخوذ عن الصحابة والتابعين"، وذلك: أن أبا علي أقام بسَمَرْقنْد مدة أربع سنين يأخذ تلك الشمائل من محمد بن نصر المروزي، وأخذها ابن نصر عن يحيى بن يحيى، فلم يكن بخراسان أعقل منه، وأخذها يحيى عن مالك، أقام عليه لأخذها سنة بعد أن فرغ من سماعه، فقيل له في ذلك؟ فقال:" إنما أقمتُ مستفيدًا لشمائله، فإنها شمائل الصحابة والتابعين ". **(ترتيب المدارك:١/ ١١٧)**.

- ***وقال ابن وهب -رحمه الله-:***" ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه ".

(سير أعلام النبلاء:٨/ ١١٣)

- ***قال القاضي أبو يعلى-رحمه الله-:***" روى أبو الحسين بن المنادي بسنده إلى الحسين بن إسماعيل قال: سمعت أبي يقول:" كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء على خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حُسْنَ الأدب، وحسن السَّمْت ". **(شرح منتهى الإرادات للبهوتي:١/ ٩)**

- ***وذكر هذا الأثر الذهبي في" كتابه سير أعلام النبلاء:١١/ ٣١٦" فقال:***" أن مجلس الإمام أحمد- رحمه الله – كان يحضره خمسة آلاف خمسمائة يكتبون، والباقون يستمدون من سمته وخلقه وأدبه ".

- ***وقال أبو بكر بن المطوعي-رحمه الله-:***" اختلفت إلى أبي عبد الله- يعني الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- ثنتي عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده، فما كتبت عنه حديثًا واحدًا، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه ". **(سير أعلام النبلاء:١/ ٣١٦)**

- وكان العلامة ابن الشجري لا يكاد يتكلم في مجلسه بكلمة؛ إلا وتتضمن أدب نفس، أو أدب درس".

(المصدر السابق:٢٠/ ١٩٦)

١- لأن ابن سيرين توفي سنة ١١٠ هـ.

٢- هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أحد الفقهاء السبعة، كان من أكابر التابعين والفضلاء والعلماء.

٣- ناحية الرجل: جهته، وطرفه، يريد: كل ما يصدر من طرف القاسم.

- ***وقال جعفر بن سليمان-رحمه الله-:***" كنت إذا وجدتُ من قلبي قسوةً، غدوت فنظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، كان كأنه ثَكلى". **(المصدر السابق:٦/ ١٢٠)**.

- ***وقال ابن المبارك-رحمه الله-:***" إذا نظرتُ إلى الفضيل؛ جَدَّدَ لي الحزن، ومَقَتُّ نفسي، ثم بكى".
(المصدر السابق:٨/ ٤٣٨).

- ***وقال بشر بن الحارث -رحمه الله-:***" إني لأذكر المعافى[١] اليوم، فانتفع بذكره، وأذكر رؤيته فانتفع ".
(المصدر السابق:٩/ ٨٢).

- ***وقال الشافعي-رحمه الله-:***" من أحب أن يفتح الله قلبه (أو ينوره) فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبغض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب ". **(مقدمة المجموع شرح المهذب:١/ ٣١)**

حرص السلف على ملازمة الشيوخ وَالمؤَدِّبِينَ:

كان طلاب العلم في الصدر الأول يعتمدون" التلقي المباشر" من أفواه المشايخ عبر الملازمة الطويلة لهم، منهجًا ثابتًا لهم لا يحيدون عنه في طلب العلم، مع النهم، والمسابقة، والبكور، ومزاحمة العلماء بالركب.

- ***وقد سئل الإمام مالك-رحمه الله-:***" أيؤخذ العلم عمن ليس له طلب ولا مجالسة؟"، فقال:" لا "، فقيل:" أيؤخذ ممن هو صحيح ثقة غير أنه لا يحفظ، ولا يفهم ما يحدث؟ "، فقال:" لا يكتب العلم إلا ممن يحفظ، ويكون قد طلب، وجالس الناس، وعرف وعمل، ويكون معه ورع ". **(إسعاف المبطأ برجال الموطأ ص:٤)**

وقد اشتهر في بيان ما يشترط في طلب العلم بيتان لإمام الحرمين -رحمه الله-، قال:

أخي لن تنـال العلـم إلا بستـة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاءٍ، وحرصٍ، وافتقارٍ، وغربةٍ وتلقينِ أستاذ، وطولِ زمـان

(طبقات الشافعية الكبرى :٥/ ٢٠٨)

وقد قيل:" حيثما كنت؛ فكن قرب فقيه[٢] ".

- وصحب ثابتٌ البناني-رحمه الله- أنسَ بن مالك ﷺ أربعين سنة ". **(المصدر السابق:٥/ ٢٢٢)**.

- وكان حامد بن يحيى البلخي ممن أفنى عمره بمجالسة ابن عيينة -رحمه الله- ".

(الثقات لابن حبان:٨/ ٢١٨)

١- هو الإمام، شيخ الإسلام، ياقوتة العلماء المعافى بن عمران، أبو مسعود الأزدي الموصلي الحافظ (ت ١٨٥).
٢- ولهذه الوصية قصة، فقد قال عبد الله بن أبي موسى التُّستريُّ: (قيل لي: حيثما كنت؛ فكن قرب فقيه "، قال: فأتيت بيروت إلى الأوزاعي، فبينما أنا عنده إذ سألني عن أمري، فأخبرته، وكان مجوسيًا، ثم أسلم، فقال لي:" ألك أب؟ "، قلت:" نعم، تركته بالعراق مجوسي "، قال:" فهل لك أن ترجع لعل الله يهديه على يديك؟ "، قلت:" ترى لي ذاك؟ "، قال:" نعم "، فأتيت أبي، فوجدته مريضًا، فقال لي:" يا بني أي شيء أنت عليه؟ " فأخبرته أني أسلمت، فقال لي:" فأعرض علي دينَك، فأخبرته بالإسلام وأهله، قال:" فإني أشهدك أني قد أسلمت "، قال: فمات في مرضه ذلك، فدفنته، ورجعت إلى الأوزاعي فأخبرته).

وقال محمد بن الحسن الشيباني عن أبي حنيفة-رحمه الله-: " الحكايات عن العلماء، ومجالستهم أحب إليّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم "، قال محمد: ومثّل ذلك: ما رُوي عن إبراهيم النخعي -رحمه الله- قال:" كنا نأتي مسروقًا، فنتعلم من هديه ودَلّه "، ثم أسند إلى أبي الدرداء ﷺ قوله:" من فقه الرجل: ممشاه، ومدخله، ومخرجه مع أهل العلم[1] ". **(جامع بيان العلم وفضله:١/ ١٢٧)**

وقال الإمام مالك-رحمه الله- :" أتى نُعَيمٌ المجْمِرُ أبا هريرة ﷺ عشرين سنة ". **(سير أعلام النبلاء:٨/ ١٠٧).**

وقال الإمام مالك -رحمه الله-: " كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه ".

(المصدر السابق:٨/ ١٠٨)

وقال نافع بن عبد الله: " جالست مالكًا أربعين سنة- أو قال: خمسًا وثلاثين سنة- كل يوم أبكر، وأهجّر، وأروح ". **(حلية الأولياء:٦/ ٣٢٠).**

وهكذا كان الطالب يلازم شيخه ويقتدي به، ويتخلق بآدابه إلى جانب تضلعه من علمه وتزوده من معارفه، فمن ثَمَّ أثمر هذا النهج القويم طلاب علم يطيرون بجناحي العلم والعمل، ولا يقَال:" عالم " في الحقيقة إلا إذا كان عاملًا، فغير الجاري على مقتضى علمه هو والجاهل سواء.

قال الشاعر:

وإذا الفتى قد نال علمًا ثم لم　　　يعمــل بـــه فكأنـــه لـم يعلم

- عن إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع قال:" كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به ".

(اقتضاء العلم العمل ص:٩٠).

وسئل الإمام أحمد-رحمه الله- عن رجل يكتب الأحاديث، فيكثر، فقال: " ينبغي أن يكثر العملَ به على قدر زيادته في الطلب"، ثم قال:" سُبُل العلم مثل سُبل المال، إنْ المال إذا ازداد ازدادت زكاته ".

(المصدر السابق ص:٩٠).

وقالت أم سفيان الثوري له وهي تعظه: " يا بني إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر: هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك، ولا تنفعك ". **(صفة الصفوة:٣/ ١٨٩).**

وعن الحسن-رحمه الله- قال: " قد كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في: تخشعه، وهديه، ولسانه، وبصره، وبره ". **(شعب الإيمان:٢/ ٢٩١).**

١- ومن مظاهر التأكيد على أن مصاحبة العلماء لا تستقيم حياة المسلم بدونها، قول العلماء:" إذا لم يوجد مفت في مكان ما حرم السكنُ فيه، ووجب الرحيل منه إلى حيث يوجد من يفتيه في أحكام الدين وما ينزل به من نوازل "، كما نقله الدكتور عبد الكريم زيدان في " أصول الدعوة " ص:١٤٧)، ونقل - في نفس الموضع- عن الإمام ابن حزم -رحمه الله- تعالى قوله:" فرض على كل جماعة مجتمعة في قرية أو مدينة أو حصن أن ينتدب منهم من يطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها، ويتعلم القرآن كله ، وما صح عن النبي ﷺ من أحاديث الأحكام... إلخ، ثم يقوم بتعليمهم، فإن لم يجدوا في محلتهم من يفقههم في ذلك كله؛ ففرضٌ عليهم الرحيل إلى حيث يجدون العلماء المجتهدين في صنوف العلم، وإن بعدت ديارهم، وإن كانوا بالصين " اهـ.

وقال إبراهيم بن إسماعيل-رحمه الله- :" كان أصحابنا يستعينون على طلب الحديث بالصوم".

(الجامع لآداب الراوي والسامع:١/ ١٤٣).

وقال سفيان بن عيينة -رحمه الله-: " كان الشاب إذا وقع في الحديث احتسبه أهله ".

(المصدر السابق:١/ ١٤٣).

وقال أبو بكر الخطيب البغدادي-رحمه الله-: " يعني أنه كان يجتهد في العبادة اجتهادًا يقتطعه عن أهله، فيحتسبونه عند ذلك ".

وكم كان للعلماء الربانيين مع تلاميذهم من لفتات تربوية صادقة، ونصائح سلوكية مخلصة، تعمل في قلوبهم، وتظهر في أحوالهم.

قال إسماعيل بن يحيى-رحمه الله- :" رآني سفيان وأنا أمازح رجلًا من بني شيبة عند البيت، فتبسمتُ، فالتفت إليَّ، فقال:" تبتسم في هذا الموضع! إن كان الرجل ليسمع الحديث الواحد، فنرى عليه ثلاثة أيام سمته وهديه ". **(المصدر السابق:١/ ١٥٧).**

وقال قاسم بن إسماعيل بن علي-رحمه الله- :" كنا بباب بِشْر بن الحارث؛ فخرج إلينا؟ فقلنا:" يا أبا نصر حدِّثنا؟ فقال:" أتؤدون زكاة الحَديث؟" قال: قلت له:" يا أبا نصر، وللحديث زكاة؟" قال:" نعم، إذا سمعتم الحديث، فما كان في ذلك من عمل أو صلاة أو تسبيح استعملتموه ". **(المصدر السابق:١/ ١٤٤).**

وقال عمرو بن قيس الملائي -رحمه الله- :" إذا بلغك شيء من الخير، فاعمل به – ولو مرة– تكن من أهله ". **(المصدر السابق:١/ ١٤٤).**

وقال أبو عمرو بن حمدان-رحمه الله- : سمعت أبي يقول:" كنت في مجلس أبي عبد الله المروزي، فحضرت صلاة الظهر؛ فأذَّن أبو عبد الله؛ فخرجت من المسجد؛ فقال:" يا أبا جعفر إلى أين؟" قلت:" أتطهر للصلاة "، قال:" كان ظني بك غير هذا، يدخل عليك وقت الصلاة، وأنت على غير طهارة! ".

(المصدر السابق:١/ ١٤٣).

وقال أبو عصمة عاصم بن عصام البيهقي-رحمه الله- :" بتُّ ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء، فإذا هو كما كان، فقال:" سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له وِرْد من الليل ". **(المصدر السابق:١/ ١٤٣)**

فوائد[١]:

الأولى: اعلم –رحمك الله– أن معنى الحديث الذي **رواه البخاري ومسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان–رضي الله عنهما–عن رسول الله ﷺ قال:" من يُرد الله به خيرًا، يفقهه في الدين".** أنه يفهمه في الدِّين، ومعنى" الدين" هنا ينبغي أن يفهم في ضوء قوله ﷺ:" **هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم** ". (رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ) بعدما سأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وبهذا يعلم أن مدح " الفقه في الدين" لا يختص بعلم الفروع الظاهر، على علم الأدب الباطن؛ لأن" الدين" شامل للأمرين، بل الثاني أولى بالدخول فيه؛ لأنه النتيجة والثمرة المقصودة بالذات من العلم، إذ إنه علم تحصل به تصفية البواطن من عيوب النفس، وتعلّمُه واجب على يد من هو أهلٌ له من الكُمَّل العارفين الجامعين بينه وبين علم الظاهر على الوجه الأتم، **كما قيل في شأنه:**

علم بــه تصفيـة البواطـنِ   من كدرات النفس في المواطنِ
وذاك واجب على المكلف   تحصيلـــه يكــون بالمُعَــرِّف[٢]

الثانية: اعْلم – أصلحك الله– أن تفضيل العالم على العابد، الوارد في قوله ﷺ:" **فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**[٣]"، وقوله ﷺ:" **فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**[٤]". الحديث؛ لا يراد منه أن العالم المفضَّل عار عن العمل، والعابد عن العلم، بل المراد أن علم ذلك غالب على عمله، وعمل هذا غالب على علمه، فإن العابد إذا كان عاريًا عن العلم لا يُسمى في عرف الشرع عابدًا بل يسمى فاسقًا، لأنه بدوام تركه تعلم فروض العين لا يزال فاسقًا؛ كما قال بعض العلماء:

وجاهل لفرض عين لم يَجُزِ   إطلاقُ " صالحٍ " عليه فاحترِزْ
لأنـــه بتركِــــهِ التعلُّمـــا   لـم يَنِ فاسقًا يقــول العلمـــا

أي يقول العلماء: إنه لم يزل فاسقًا بتركه التعلم الواجب عليه، فالصالح لا يُطلق شرعًا إلا على القائم بحقوق الله وحقوق العباد، ولا يمكن ذلك بدون العلم:

وقائم بحق ربه وحق   عباده فصالحًا قد استحق

فالصالح مرادف للعابد، لأن عبادة العابد بدون علم لا تسمى عبادة؛ لأن ما يفسده صاحبها أكثر مما يصلحه:

إن الذي بدون علمٍ يَعْبُدُ   لا يُحسن العملَ لكن يُفْسِدُ

١ـ مختصرة من " فتح المنعم " للشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي ـرحمه الله-:٣/ ٣١٣ ـ ٣٥٣).
٢ـ المعَرِّف: الشيخ المربي الكامل لأنه هو المعرف لهذا الفن، الموقف على دقائقه، لأنه سلك مسالكه سابقًا، وعرف طرق مخاوفه، وكيفية النجاة منها.
٣ـ قطعة من حديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.
٤ـ رواه الترمذي وصححه الألباني.

فترد أعماله، ولا تقبل لخلوها عن العلم:

وكل من بغير علمٍ يعملُ أعمالُه مردودة لا تُقبَلُ

والحاصل أن العابد هو العالم الذي غلب عمله على علمه، ولم يشتغل بتعليم الناس، بخلاف العالم فإن الغالب عليه التعليم، والإفتاء، والتصنيف.

الثالثة: ينبغي لمن أراد التفقه في الدين في أول طلبه أن يمزجه بالتعبد، إذ إنه ليس ثَمَّ عمر طويل في الغالب حتى يترك له برهة منه، فيخشى عليه أن يموت وهو في السبب، قبل وصوله للمقصود.

من أدب الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام

قال الرازي-رحمه الله- في" مفاتيح الغيب" مشيرًا إلى قول موسى للخَضرِ-عليهما السلام-: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾:" اعلم أن هَذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعًا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر.

فأحدها: أنه جعل نفسه تبعًا له، لأنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

ثانيها: أنه استأذن في إثبات هذه التبعية، فكانه قال:" هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك؟" وهذه مبالغة عظيمة في التواضع.

ثالثها: أنه تعالى قال: ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالحاجة إلى ما عند أستاذه من العلم.

رابعها: أنه تعالى قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ وصيغة " من" للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضًا مشعر بالتواضع، كانه يقول له:" لا أطلب منك أن تجعلني مساويًا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءًا من أجزاء علمك "، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءًا من أجزاء ماله.

خامسها: أن قوله تعالى: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علَّمه ذلك العلم ". اهـ بتصرف.

(التفسير الكبير:١٠/ ٣٥٢)

هكذا نسب الرازي القول إلى الله تعالى هنا، وفي عدة مواضع مما يأتي، والأولى أن يقول:" قال تعالى على لسان موسى عليه السلام "، والله أعلم.

سادسها: أن قوله تعالى: ﴿رُشْدًا﴾ طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

سابعها: أن قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علي عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم، ولهذا المعنى قيل:" أنا عبد من تعلمت منه حرفًا ".

ثامنها: أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، لا لأجل كونه فعلا لذلك الغير، فإنا إذا قلنا:" لا إله إلا الله "، فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة، فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة؛ لأننا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها.

أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله ﷺ؛ فإنما أتينا بها لأجل أنه عليه الصلاة والسلام أتى بها لا جرم كنا متابعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله ﷺ.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد، كون ذلك الأستاذ آتيًا بها، وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم، وترك المنازعة والاعتراض.

تاسعها: أن قوله تعالى: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقًا في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء.

عاشرها: أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولًا أنه نبي بني إسرائيل، وأنه هو موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدل على كونه عليه الصلاة والسلام آتيا في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به، لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

الحادي عشر: أنه تعالى قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ﴾ فأثبت كونه تبعًا له أولًا، ثم طلب ثانيًا أن يعلمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة، ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

الثاني عشر: أنه تعالى قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئًا، كأنه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلا طلب العلم ". اهـ.

وقال ابن قيم الجوزية-رحمه الله-: " تأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟

قال المسيح عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾(المائدة: ١١٦)، ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به- وهو

محض التوحيد-، **فقال:** ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة: ١١٧)، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجلِ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، **فقال:** ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ثم وصفه بأن شهادته -سبحانه- فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾. **ثم قال:** ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ (المائدة: ١١٨)، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي: شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك، فإذا عذبتهم -مع كونهم عبيدك- فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم، لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحسانًا عبيدَه؟ لولا فرط عُتُوهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم، فإذا عذبتهم؛ عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه، فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولم يقل:" الغفور الرحيم " وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم، فلو قال:" فإنك أنت الغفور الرحيم "؛ لأشعر باستعطافه رَبَّه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة الرب في غضبه على مَنْ غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم؛ فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عينَ الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار" حملة العرش أربعة: **اثنان يقولان:**" سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك "، **واثنان يقولان:**" سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك "، ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى، كقوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة النساء: ١٢)

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (سورة النساء: ١٤٩).

وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (سورة الشعراء٧٨: ٨٠)، ولم يقل:" وإذا أمرضني " حفظا للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضِر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (سورة الكهف:٧٩)، ولم يقل:" فأراد ربك أن أعيبها"، **وقال في الغلامين:** ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ (سورة الكهف: ٨٢) ".

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ (سورة الجن: ١٠)، ولم يقولوا:" أراده ربهم "، ثم قالوا ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (سورة القصص: ٢٤)، ولم يقل:" أطعمني ".

وقول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٣) ولم يقل:" رب قدرْتَ عليّ وقضيتَ عليَّ ".

وقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣) ولم يقل:" فعافني، واشفني ".

وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ (سورة يوسف: ١٠٠) ولم يقل:" أخرجني من الجب" حفظًا للأدب مع إخوته، وتَفَتيا عليهم: أن لا يخجلهم بما جرى في الجب، **وقال:** ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ ولم يقل:" رفع عنكم جهد الجوع والحاجة "، أدبًا معهم، وأضاف ما جرى إلى السبب، ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه، **فقال:** ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل: أن يستر عورته، وإن كان خاليًا لا يراه أحد[1]، أدبًا مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

إلى أن قال-رحمه الله-: " وجرت عادة القوم أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه ﷺ، حين أراه ما أراه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(سورة النجم:١٧)، وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية، وكذلك غيره. وكأنهم نظروا إلى قول مَن قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب، والإخلالُ به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور، فالالتفات زيغ، والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة، فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يَمنة ولا يَسرة، ولا يتجاوزه. هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره، فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهود بالبصر، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ (سورة النجم:١١، ١٢)، أي ما كذَب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر" ما كذب الفؤاد ما رأى" - بتشديد الذال- أي لم يكذّب الفؤاد البصر، بل صدقه وواطأه، لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقًا، وقرأ الجمهور ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ بالتخفيف، وهو متعد، و ﴿مَا رَأَى﴾ مفعوله ، أي ما كذب قلبُه ما رأته عيناه، بل واطأه ووافقه، فلمواطأة قلبه لقالَبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حَدَّه فيطغى، ولم يمل عن المرئي فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي، ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته ، وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه. وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

١- يشير إلى ما رواه معاوية بن حيدة ﷺ قال:" قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال:" احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ". الحديث، وفيه:" قلت: يا رسول الله! إذا كان أحدنا خاليًا؟ قال:" الله أحق أن يستحيا منه من الناس". (رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي)

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى أن موسى ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة؛ طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام؛ وفاه حقه، فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البته؟

ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه، وقال:" يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله، وهذا قد جاوزني وخَلَّفني علوًا، فلو أنه وحده؟ ولكن معه كل أمته ".

وفي رواية للبخاري: **" فلما جاوزته بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلامًا بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي "**، ثم جاوزه علوًا فلم تعقه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مَسْراه يسبق خطوه الطرفَ، فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلًا لحال راكبه، وبُعْدِ شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبَّت إليه هناك أقسام القُرَب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غبطه به الأنبياء والمرسلون، فإذا كان في المعاد أقيم مقامًا من القرب ثانيًا، يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، ما زاغ البصر عنه وما طغى، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة يس:١- ٤)، فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم) اهـ (مدارج السالكين:٢/ ٣٧٨ - ٣٨٤).

أدب الصحابة رضى الله عنهم مع النبي - صلى الله عليه وسلم -

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ (سورة الفتح٨، ٩)، فأوجب عز وجل تعزيزه وتوقيره ﷺ وألزم إكرامه وتعظيمه.

قال المبرد-رحمه الله- : ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾:" تبالغوا في تعظيمه"، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام، **فقال عز وجل:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في إهمال حقه، وتضيع حرمته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الحجرات:١-٤)، إلى غير ذلك من آيات الذكر الحكيم الآمرة بالأدب العالي مع رسول الله ﷺ، وقد امتثل الصحابة رضوان الله عليهم تلك الأوامر الإلهية، فحفظوا حقوق سيد البرية، وتأدبوا معه ﷺ بما يليق بمقامه الشريف، وفضله المنيف.

- ففي قصة صلح الحديبية أن عروة بن مسعود جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بعينيه، قال:" **فوالله! ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيمًا له**"، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال:" **أي قوم! والله! لقد وفدت على الملوك؛ وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله! إن رأيت ملِكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا** ". الحديث

(رواه البخاري وأبو داود وأحمد)

- وفي نفس القصة أن عروة بن مسعود دخل على النبي ﷺ، فجعل يحدثه، ويشير بيده إليه، حتى تمس لحيته، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ بيده السيف، **فقال له:**" **اقبض يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجع إليك، فقبض يده عروةُ** ". (رواه البخاري وأبو داود وأحمد).

- **ورُوي أن عمر عمد إلى ميزابٍ للعباس على ممر الناس، فقلعه، فقال له:**" **أشهد أن رسول الله ﷺ هو الذي وضعه في مكانه**"، فأقسم عمر:" **لتصعدنَّ على ظهري، ولتضعنه موضعه** ".

(أخرجه أحمد وابن سعد وضعفه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند رقم:١٧٩٠)

- ***وعن أبي رزين قال: قيل للعباس:*** " **أنت أكبرُ أو النبي ﷺ؟**" قال:" **هو أكبر، وأنا ولدتُ قبله** ".

(عزاه الهيثمي في" المجمع:٩/ ٢٧٠) إلى الطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح).

- **وفي حديث قَيْلَة:**" **فلما رأيت رسول الله ﷺ جالسًا القرفصاء أرْعِدتُ من الفَرَق، وذلك هيبةَ له وتعظيمًا** ". (انظر الإصابة :٨/ ٨٣- ٨٧).

– ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، نزل على أبي أيوب، فنزل رسول الله ﷺ السفل، ونزل أبو أيوب العلو، فلما أمسى، وبات؛ جعل أبو أيوب يذكر أنه على ظهر بيت رسول الله ﷺ أسفل منه، وهو بينه وبين الوحي، فجعل أبو أيوب لا ينام يحاذر أن يتناثر عليه الغبار، ويتحرك فيؤذيه، فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ فقال:" **يا رسول الله! ما جعلت الليلة فيها غمضًا أنا ولا أم أيوب"، فقال:" ومم ذاك يا أبا أيوب؟" قال:" ذكرت أني على ظهر بيتٍ أنت أسفل مني، فأتحرك، فيتناثر عليك الغبار، ويؤذيك تحركي، وأنا بينك وبين الوحي** ". الحديث. (رواه مسلم وأحمد والطبراني في" الكبير).

وأخرج الإمام مسلم والطبراني في" الكبير" واللفظ له عن أبي أيوب ﷺ قال: **" لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ قلت:" بأبي وأمي إني أكره أن أكون فوقك، وتكون أسفل مني"، فقال رسول الله ﷺ:" إن أرفق بنا أن نكون في السفل لما يغشانا من الناس"، فقال: فلقد رأيت جرة لنا انكسرت، فأهريق ماؤها، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة [1] لنا، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء فَرَقًا [2] من أن يصل إلى رسول الله ﷺ منا شيء يؤذيه** ". الحديث.

وأخرج الإمام مسلم عن عمرو بن العاص ﷺ قال: **".. وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عينيَّ منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينيَّ منه إجلالًا له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطقتُ، لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه** ".

– ولما أذنت قريش لعثمان في الطواف بالبيت حين وجَّهه النبي ﷺ إليهم في القضية أبى، وقال:" ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول ﷺ ".(انظر سير أعلام النبلاء:٣/٢٩٠).

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: **" إن كان ليأتي عليَّ السنةُ، أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فأتهيَّبُ منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب** ".

(عزاه الحافظ في " المطالب العالية :٣/ ٣٢٥" إلى أبي يعلى، وسكت عليه البوصيري في" مختصر إتحاف السادة المهرة :١/ ٢٨).

وقال أنس بن مالك ﷺ:" **كانت أبواب النبي ﷺ تُقْرعُ بالأظافير**".

(رواه البخاري في" الأدب المفرد " وصححه الألباني في" الصحيحة :٢٠٩٢).

وعن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ: " أنه كان في مجلس قومه وهو يحدثهم عن رسول الله ﷺ، وبعضهم يقبل على بعض يتحدثون، فغضب، ثم قال:" انظر إليهم أحدثهم عن رسول الله ﷺ وبعضهم يُقبل على بعض؟! أما والله، لأخرجن من بين أظهركم، ولا أرجع إليكم أبدًا، فقلت له:" أين تذهب؟ "، قال:" أذهب فأجاهد في سبيل الله ". (رواه الطبراني في" الكبير).

١ـ القطيفة: كساء له خمل.
٢ـ الفَرَق: الخوف.

مِن أدبِ العلماءِ مع النبي - صلى الله عليه وسلم -

قال القاضي عياض-رحمه الله-: " واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ وذِكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته وصحابته، قال أبو إبراهيم التُّجيبيُّ:" واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر، ويُسَكِّنَ من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدَّبنا الله به". اهـ **(الشفا بتعريف حقوق المصطفى :٢/ ٩١)**.

قال مصعَب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ عنده تغير لونُه وانحنى، حتى يصعُبَ ذلك على جُلسائه، فقيل له يومًا في ذلك؟ فقال: لو رأيتم لما أنكرتم علي ما ترون، كنتُ آتي محمد بن المنكدِر وكان سيد القُرَّاء – أي سيد العلماء– لا نكاد نسأله عن حديث إلا بكى حتى نرحمه، ولقد أتى جعفر بن محمد – هو جعفر الصادق– وكان كثير المزاح والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اخضرَّ واصفرّ".

(ترتيب المدارك :١/ ١٧٩)

وقال مالك أيضًا-رحمه الله-: " كلما أجدُ في قلبي قسوةً آتي محمد بن المنكدر، فأنظرُ إليه نظرة، فأتعظ بنفسي أيامًا ".

وكان محمد بن المنكدر-رحمه الله- سيد القراء لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا كان يبكي ".

(الشفا بتعريف حقوق المصطفى:٢/ ٩٣).

وفي ترجمة أيوب بن أبي تميمة السختياني: قال مالك-رحمه الله-: " كنا ندخل على أيوب فإذا ذكرنا له حديث النبي ﷺ بكى حتى نرحمه، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ احتفز وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة ". **(المصدر السابق:٢/ ٩٤)**.

وفي ترجمة عامر بن عبد الله بن الزبير: قال الإمام مالك: " ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينه دموع ". **(المصدر السابق:٢/ ٩٤)**.

وقال في حق عبد الرحمن بن القاسم: " ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فيُنظر إلى لونه كأنه نُزِف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة منه لرسول الله ﷺ". **(المصدر السابق:٢/ ٩٥)**.

وقال في حق صفوان بن سليم: " ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين[1]، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه". **(سير أعلام النبلاء:٥/ ٣٦٥)**.

١- وصفوان بن سليم -رحمه الله- قد بلغ قصب السبق في العبادة والزهد، وكانت له مكانة خاصة عند الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- حيث قال فيه:" صفوان بن سليم في الثقات يُستشفى بحديثه، وينزل القطر من السماء بذكره ". (السير للذهبي:٥/ ٣٧٧)
وقال سفيان -رحمه الله-:" أخبرني الحفّار الذي يحفر قبور أهل المدينة، قال: حفرت قبر رجل فإذا أنا قد وقعت على قبر، فوافيت جمجمة فإذا السجود قد أثر في عظام الجمجمة، فقلت لإنسان:" قبر من هذا؟ " فقال:" أوَ ما تدري؟ هذا قبر صفوان بن سليم ".

وقال ابن عيسى القزاز: " كان مالك بن أنس إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل، وتبخَّر، وتطيب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه زَبَره[1]، وقال: **قال الله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات: ٢) فمن رفع صوته عند حديث النَّبِي ﷺ، فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ ".

(الجامع للخطيب:١/ ٤٠٦)

وقال حماد بن زيد-رحمه الله-: " كنا عند أيوب، فسمع لَغَطًا فقال:" ما هذا اللغطُ؟ أما بلغهم أن رفع الصوت عند الحديث عن رسول الله ﷺ، كرفع الصوت عليه في حياته؟! ". **(المصدر السابق:١/ ١٩٥)**.

وقال حسين المعلِّم -رحمه الله-: " كان محمد بن سيرين يتحدث، فيضحك، فإذا جاء الحديث خشع ".

(المصدر السابق:١/ ٤١٢).

وقال بشر بن الحارث -رحمه الله-: سأل رجل ابن المبارك عن حديث - وهو يمسي- فقال:" ليس هذا من توقير العلم "، قال بشر:" فاستحسنته جدًا ". **(المصدر السابق:١/ ٢١٢)**.

وقال ابن وهب-رحمه الله-: حدثني مالك أن رجلًا جاء إلى سعيد بن المسيب وهو مريض، فسأله عن حديث وهو مضطجع، فجلس فحدثه، فقال له الرجل:" وددت أنك لم تتعَنَّ "، فقال:" إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع ". **(المصدر السابق:١/ ٤٠٩)**.

وقال ابن القاسم -رحمه الله-: " قيل لمالك:" لم لمْ تكتب عن عمرو بن دينار؟"، قال:" أتيته والناس يكتبون عنه قيامًا، فأجْلَلْتُ حديث رسول الله ﷺ أن أكتبه وأنا قائم ". **(المصدر السابق:١/ ٤٠٨)**

وقال ابن المبارك-رحمه الله-: " وكنت عند مالك وهو يحدثنا؛ فلدغته عقرب؛ ستة عشر مرة[2]، ومالك يتغير لونه، ويصبر، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما فرغ من المجلس، وتفرق الناس، قلت:" يا أبا عبد الله، لقد رأيت منك اليوم عجبًا "، قال:" إنما صبرت. إجلالا لحديث رسول ﷺ ". **(ترتيب المدارك:١/ ١٥٥)**

فائدة: ***قال الإمام النووي-رحمه الله- في مقدمة شرحه لكتاب" صحيح مسلم ":*** " فصل: يستحب لكاتب الحديث إذا مر بذكر الله عز وجل أن يكتب" عز وجل" أو" تعالى" أو" سبحانه وتعالى" أو" تبارك وتعالى" أو" جل ذكره" أو" تبارك اسمه" أو" جلت عظمته" أو ما أشبه ذلك. وكذلك يكتب عند ذكر النبي ﷺ بكمالها، لا رامزًا إليهما، ولا مقتصرًا على أحدهما. وكذلك يقول في الصحابي:" ﷺ"، فإن كان صحابيًا ابن صحابي قال:" -رضي الله عنهما-"، وكذلك يترضى ويترحم على سائر العلماء والأخيار- أي يستحب ذلك أيضًا- ويكتب كل هذا وإن لم يكن مكتوبًا في الأصل الذي ينقل منه، فإن هذا ليس رواية وإنما هو دعاء، وينبغي أن يقرأ كل ما ذكرنا، وإن لم يكن مذكورًا في الأصل الذي يقرأ منه، ولا يسأم من تكرر ذلك، ومن أغفل هذا حُرِمَ خيرًا عظيمًا، وفَوَّتَ فضلًا جسيمًا ". اهـ **(شرح النووي:١/ ٣٩)**.

١- زبره: انتهره، وزجره.

٢- كذا في الأصل، ولعله خطأ من الناسخ، والصواب:" ست عشرة مرة ".

ولقد اهتم العلماء بالآداب الإسلامية اهتمامًا بالغًا على مر العصور، وصنفوا فيها المصنفات النافعة، ومنها:

(١) كتاب (الأدب المفرد) للبخاري -رحمه الله-.

(٢) كتاب (الأدب) في صحيح البخاري-رحمه الله-.

(٣) كتاب (الآداب) في صحيح مسلم-رحمه الله-.

(٤) كتاب (الأدب) في سنن أبي داود-رحمه الله-.

(٥) كتاب (الأدب) في سنن الترمذي-رحمه الله-.

(٦) كتاب (الأدب) في سنن ابن ماجه-رحمه الله-.

(٧) كتاب (الآداب) للبيهقي-رحمه الله-.

(٨) كتاب (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) للخطيب البغدادي -رحمه الله-.

(٩) كتاب (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر-رحمه الله-.

(١٠) كتاب(تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) لابن جماعة -رحمه الله-.

(١١) كتاب (الآداب الشرعية) لابن مفلح الحنبلي-رحمه الله-.

(١٢) كتاب (آداب الأكل) لابن عماد الأقفهسي الشافعي-رحمه الله-.

(١٣) كتاب (من أدب الإسلام) لعبد الفتاح أبي غدة -رحمه الله-.

(١٤) كتاب (الآداب) لفؤاد الشلهوب.

وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة التي كُتبت في الآداب الإسلامية.

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثَمَّ خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك